العقاب ...

قصة بقلم ثروت سرور

اخيرا وقع الفأر في المصيدة ، وسكنت العاصفة الهوجاء التي كانت تقتلعني من جذوري .

وهانا في طريقي الان الى قسم « الموسكي » بعد ان تلقيت اشارة تدعوني وتقول أنهم قبضوا على العربجي الهارب !!

وانني لمشوق جدا لان أرى مرة اخرى ذلك الرجل الذي امكنه ان يريني النجوم وقت الظهيرة والذي استطاع ان يجعل مني في الاربعة الايام المنصرمة شيئا تالفا يصلح للموت اكثر مما يصلح للحياة !!

ان كل ماحدث وكل ماكان يمكن ان يحدث لو لم يقبضوا عليه يرتب على خطأ وقع في لحظات . لحظات قليلة أقل من ان يعتقد انها تكفي لعمل شيء !

كانت عربة الكارو تقف امام الاشارة المقفلة في نهاية شارع البوستة وسط القطيع الهائل من العربات المتباينة تنتظر السماح من الاشارة الخضراء لتندلف الى ميدان العتبة بينما أسرعت أنا الى « كشك » مجاور لابتاع علبة سجائر . فدفعت ثمنها للبائع . وتطلب رد الباقي لحظات قليلة . عاودت المسير بعدها وقد ادركت انني تخلفت اكثر من اللازم ، ذلك ان الاشارة كانت قد فتحت ، والعربجي كان قد غاب عن نظري !

وحاولت جاهدا ان استوعب ميدان العتبة في نظرة شاملة وانا أفتش عنه والافكار المتناقضة قد بدأت تغزو رأسي وتمور فيه !

على انني كنت أدع لافكاري المتقاتلة ان تقطن على ماعداها .

فالعربجي لاشك في طريقه الى عابدين ، ولان العربة مسرعة لابد ان تكون قطعت مسافة طويلة منذ ان فتحت امامها الاشارة ، ومن الواضح ان العربجي واصل سيره دون ان يشعر حتى بانني قد تخلفت .

وطفقت اعدو بكل قواي في شارع محمد علي باحثا عنه في طريقي نادما غاية الندم لانني تركته دون ان تكون معي رخصته او على الاقل دون ان تكون معي نمرة العربة خاصة وقد جئت به من لشارع وليس من موقف عربات !

واقتربت سريعا من ميدان « باب الخلق » دون ان اعثر له على أثر ، وظللت أعدو كذلك وانا أقيس بخيالي المسافة التي يمكن ان تقطعها العربة خلال الزمن الذي مضى على اختفائها فتأكد لي انها لم تكن لتصل الى ميدان « باب الخلق » بأي حال .

واذن فهي لم تدخل اطلاقا شارع محمد علي وهو انسب طريق يؤدي بعربات الكارو الى عابدين . فهل سارت في سراديب تحت الارض .

هذا ماسأعرفه بعد قليل من العربجي ذاته ، وسأرى ما اذا كان ممكنا ان يتركني البوليس بعد ذلك لاشرب من دمه كي تخمد نهائيها جذوة الغيظ التي اضرمها في قلبي . فان شيئا مما سيفعله القانون لن يطفئها ولن يشفي غلتي !!

ساعرف كيف امكنه ان يختفي عن نظري بمثل هذه السرعة وهو انسان !!

فقد وصلت وقتها الى « باب باريز » دون ان اجد شيئا . ومن ثم عدت عائدا الى العتبة عن طريق شارع عبد العزيز وقد ثبت لدي بما لا يدع مجالا للشك ان العربجي هرب عامدا وان اية لحظة تمضي بعد ذلك دون العثور عليه ستكون مكسبا له وخسارة لي ، ولكني لم افقد الامل ولا كان في وسعي ان افقده ! فالعربة تحمل كل مانملك ، وكل مالا بد منه لكي نشعر ان لنا بيتا كسائر الناس !

الاثاث . ثيابي كلها الا ماأرتديه وثياب زوجتي . خطابات وصور حبنا قبل وبعد ان تزوجنا . الهدايا الكثيرة البسيطة التي تبادلناها في فجر حبنا والتي لانقدر بمال لفرط اعتزازنا بها . كانت رغبتي الشديدة في العثور على كل هذا وارتباطي الوثيق به يجعلاني ارفض اليأس وأقاومه وأسقط من حسابي امكان عدم العثور عليها . تماما كمن يفقد عزيزا فجأة ثم لايريد لفرط مايعلق به ان يصدق او يسلم بفقدانه !

كنت اشعر ان العربجي سلبني شيئا اكثر من حياتي ودنياي واكثر من كل مايربطني كانسان بهذه الارض ، وانه لابد من العثور عليه اذا كان هناك عمر يجب ان اعيشه !

ولاحظت ان العدو لايمكني من التفرس في الطريق كما ينبغي ، فبدأت اسير بخطوات سريعة وانا اتجه عائدا الى السكن القديم الذي تركته في شبرا عسى ان يكون العربجي قد عاد اليه بعد ان افتقدني .

وفجأة اكتشفت ان صورته قد ساحت في رأسي وأمست شيئا باهتا مهزوزا ، وحاولت باصرار ان استجمع ملامحها خشية الا يكون في امكاني التعرف عليه اذا رأيته مرة اخرى فرجعت استعيد لقاءنا الاول ! كانت الساعة في يدي وقتذاك تقترب من الرابعة مساء بينما كنت اقترب من دوران روض الفرج . وأحسست بغير قليل من الراحة عندما وقع بصري عليه . ذلك لان حماره كان يجر عربة تتسع لاكثر مما لدي من أثاث ، ولانه أيضا وفر علي عناء البحث والسؤال عن موقف العربات .

كان يبدو في العقد الثالث او ربما تجاوزه بقليل ، وكانت لحيته التي ارسلها قد اضفت عليه قناعا من وقار الشيوخ وطيبتهم ! اجل حتى لقد استشعرت الرغبة في ان أجزل له الاجر وانا اضع امامي ضعفه ونحوله وشقاءه الذي كان يطل ويصرخ من اطرافه .

وعادت ملامحه تشد بعضها البعض وتتضح في رأسي من جديد .

الوجه الذي صبغته الشمس ، واللحية الوقور التي تحيط به كاللثام ولفه بطيبة زائفة .

العينان الضيقتان المثيرتان للشفقة بما فيهما من معان كاذبة للبؤس والتعاسة . المنديل المحلاوي الذي يلفه حول رأسه وأذنيه ويعقده على جبهته في طرفين اشبه مايكونان بأذني ثعلب !

واشفقت من ان نضيع ملامحه من رأسي مرة اخرى ولحظات ماقبل اختفاء العربة ماثلة امامي . لحظات الخطأ التي مضت كالقدر لتكشف عما وراءها من مجهول . كانت العربة منطلقة وانا اسرع من خلفها كي أجاريها وأظل ملتصقا بها وافكر في أشياء عديدة وأنا أراقب المارة بلا مبالاة واقرأ دون قصد لافتات بعض المحلات !

انني لازلت اذكر كل شيء ! فقد وقعت بعض الاواني النحاسية على الارض اكثر من مرة والتقطتها وأعدتها الى مكانها من العربة وأخرجت علبة

السجائر . لم يكن بها غير سجارتين فقط أشعلت واحدة وتقدمت فاعطيته الاخرى ثم عدت الى مكاني من الخلف لارى مايمكن ان يسقط من العفش وانا ألقي بالعلبة الفارغة الى الطريق .

وبرزت في رأسي صورة المسكن الجديد الذي ازمعت الانتقال اليه وهو يأخذ يمينه ليفسح الطريق للعربات الكثيرة التي تتبعنا ، وشرعت بخيالي أوزع الاثاث في غرفة وأعود فانقله من غرفة الى اخرى بعد ان أرى من الانسب ان تكون غرفة النوم هنا لا هناك !

ولم اجد في شبرا أكثر مما وجدت في العتبة وباب باريز ، فعدت مرة اخرى من حيث اتيت ،واليأس قد أترع قلبي تماما وفضى فيه على كل أثر لامل العثور عليها ، وغام بصري فماعت الرؤية الى حد انني لم اكن لارى العربة لو انها مرت من امامي !!

وبات من الواضح انه لم يعد بامكاني ان افعل شيئا او افكر في عمل شيء وتكشفت الحقيقة سافرة بكل مافيها من مرارة . لقد اصبحت في العراء كالمشردين بلا بيت ولا مأوى وليس لي غير أيام طويله سوداء تنتظرني لاستدين فيها وتضطرب حياتي .

على ان تمة املا جديدا كان ينبعث فيقلبي كلما رحت استعرض مانحمله العربة ثم لايلبث ان ينقض عليه اليأس فيأكله في مهده .

كانت الساعة وقتئذ قد بلغت العاشرة مساء والبرد القارس يكاد ان يجمد الدم في عروقي واطرافي ، وسرت في جسمي قشعريرة نتيجة للبرودة التي نشأت في اوصالي وانا اتجه الى قسم « الموسكي » لاقدم بلاغا . واحسست انني ضعيف ..ضعيف جدا على عكس ماكنت احس به في الصباح من قوة وعزم . وبدأت احاول الخلاص من الدوامة التي اعيش فيها مطمئنا الى نشاط البوليس الذي سيحمل شطرا من العبء ويبحث معي ، ولكني كذلك صرت اكثر احساسا بالالم العبقري الذي راح يدق وينبح في كياني !

حقيقة لقد كنت أتألم طوال بحثي عن العربه ولكن دون ان افكرلانحقق من مصادر الالم واتذوقه !

كنت منصرفا عن كل شيء الا عن التفكير في حياتي التي سرقت على ظهر عربة ! غير اني رأيت بعد ذلك الدم الغزير الذي سال على جانبي الحذاء ولوث حوافيه ، وعرفت ان بركان الالم انما يندلع وينفجر اكثر مايتفجر من قدمي اليمنى ! وكدت اموت كمدا وغيظا . اذ كيف يكون بمقدور عربجي ان يسومني كل هذا العذاب ؟ وفكرت في انه موجود بلا شك في مكان ما . بل وربما اكون قد مررت اكثر من مرة امام ذلك المكان دون ان اشعر !

ووجدتني افكر في عجز الانسان وقصور حواسه وحاجته الماسة الى حاسة الهية خارقة لا لشيء الا ليرى العربجية عندما يهربون !

لقد صرت اكرهه الى حد العمى والى حد انني لم اكن لاتردد لحظة في ان انشب أظافري في عنقه وأذبحه بأسناني اذا رأيته !

وخلال الاربعة الايام التي خلت لم أعتمد على البوليس ليبحث وحده ، وانما عقدت ميثاقا مع نفسي ان اعيش في القاهرة وفي غيرها ان استطعت لابحث بذاتي عن الرجل الذي امكنه ان ينكل بي ويمثل بأعصابي .

لم ادع مكانا يمكن ان اعثر فيه على عربة كارو دون ان اذهب اليه . كنت أروي ماحدث لكل من التقي به محاولا جهدي ان ارسم له صورة للعربجي الهارب .

ووجدت في ردهة القسم عساكر رائحين غادين ضاربين باحذيتهم الضخمة على البلاط . بعضهم يحمل اوراقا ويسرع بها الى حجرة هنا او هناك ، والبعض يحمل اسلحته ويسوق متهما او ثلة من المتسولين ربطت ثيابها في بعضها !

وسألت احد العساكر عن العفش الذي ضبط فقادني الى الشاويش عطية واصوات كثيرة مختلفة تأتيني من مصادر متعددة لا أراها وتختلط في سمعي بضجة المواصلات الوافدة من الخارج .

سباب بذيء . وصوت مرتفع ينادي الشاويش علي . امرأة تبكي ونقسم بكل المقدسات ان جابر ضربها وباع المصاغ . واصوات تعلو على هذا كله زاجرة ناهرة و ..

والتفينا بالشاويش عطية امام حجرة الضابط النوبتجي : ورايته بجسمه الضخم وبطنه التي يحملها امامه كما لو كانت بطيخة هائلة ، وشواربه الكثيفة منفوشة ومنهدلة على فمه ويمسك بيده قطعة من الخيزران الغليظ وضعها تحت ابطه وانا احييه واقدم له الاشارة التي تلقينها .

وقادني على الفور الى حجرة تعرفت فيها على العفش . ولاحظت ان هناك اشياء كثيرة قد اختفت لم اعرف اغلبها ، ومع ذلك سرني ان الحقيبة التي تحتوي على الخطابات والصور لا زالت باقية على حالها لم تعبث بها يد .

ثم اخذني عبر ممر طويل وقفنا في نهايته عند باب اخرج من جيبه مفتاحا وضعه في ثقبه وراح يعالجه . وانفرج الباب عن حجرة ضيقة كالقبر ارضها غارقة في الماء ماعدا قطعة في احد اركانها تبدو كتشبه جزيره صغيرة لارتفاعها قليلا عن باقي مساحة الحجرة والعربجي لائذ بها من الماء ، متكور على نفسه كفوقعه !

وحسبت ان يبتل الحذاء فوقفت الى جوار الباب بينما دخل الشاويش عطيه في قلب الحجرة غير حافل بشيء !

وغاظه ان العربجي لازال قابعا في مكانه لم يتحرك فضربه بالعصا باقصى عزمه وركله بقدمه قائلا :

ـ قز قوم ياابن الكلب .

وبدا لي انه يبتل جهدا فائقا كي يجمع نفسه وينهض ولكن دون جدوى فضربه الشاويش بالعصا مرة اخرى ولكنه لم يتحرك ايضا . فخرج الساويش عن طوره وهدد ونوعد ورفعه من طوقه بقسوة قائلا :

ـ دلوقت عملت ميت . اياك امال تتكسح ياالص .

ثم اقترب مني وهو لايزال يمسك بتلابيبه .

وتبينت بوضوح ان ثوبه متهرىء يكشف عن صورة وعن اجزاء حساسة من جسمه ، وان ذيل الثوب مبتل بالوحل ونقط كثيرة تتساقط منه . وسمعت اسنانه تصطك بقوة من الخوف والبردوهو ينظر الى بعينيه الضيقتين كما ينظر الشاة لسكين الجزار !

واستطعت كذلك ان اتحقق من ان ماحسبته في بداية الامر وحلا يلوث وجهه انما هو كدمات فيها الكثير من الوان الطيف !

ووجدتني اشفق عليه دون ان افف لحظة واحدة لاتأمل مافعله بي ، بل على العكس وجدتني انسى له كل شيء ، وكأنه قد اصبح شيئا لايمت الى العربجي بصلة . بل اصبح كذلك فعلا . وعيناه ، لشد ماأشعر بالخجل من النظر اليهما ! انهما يتحركان في محجريهما برعونة مفعمة ألما وهلعا وكأنهما لكلب تعذب الى حد التشيع !

وفكرت في ان جسمه الذي تعذب بريء ، وانه لابد ان يكون هناك سيء اخر غير هذا الجسم هو الذي دفعه وساقه الى ان يهرب . شيء مسؤول لن تمكنهم الوصول اليه حتى ولو قتلوا العربجي ومثلوا بجثته .

وسألت نفسي : الم يحدث حقيقة ان سرقت في حياتي ؟؟

وتذكرت انني فعلت ذلك اكثر من مرة بل وسرقت احد اصدقائي قلمه الحبر . كان اعتقادي في باديء الامر انني امازحه ، ولكن القلم حملني على تغيير رأيي . انني لازلت اذكر هذا جيدا واذكر غيره سرقات اخرى يندى لها جبيني كلما ذكرتهما او فكرت فيها .

وقال الشاويش موجها كلامه الي :

ـ شوف ياافندي هو ده الواد اللي خد عفشك ؟

وكدت اصرخ بأعلى صوتي :

ـ لا انكم مخطئون . ليس هو !!

ولكني تذكرت العفش الذي تعرفت عليه منذ قليل وقلت انه ملكي لقد عثروا عليه عند هذا الذي يسألني الشاويش ان كان هو !!

وقلت برغمي وبصوت منخفض وكأنما اخشى ان يسمعه :

ـ نعم هـــو .

قلتها وكأنها خرجت من فم غير فمي . وعندئذ رأيت الشاويش ينهال عليه ضربا بالعصا بلا هوادة ودون ان يتوقف لحظة حتى بعد ان سقط العربجي في المياه وسط الحجرة .

وأحسست بألم أعمق مما لو كانت الضربات على جسمي ذاته ، ووجدتني اصرخ في الشاويش بلا وعي :

ـ خبر ايه ياشويش . مفيش رحمة أبدا ؟؟

ـ خير اسود يا افندي . ايش دخلك انت في الاعمال الرسمية ؟ رحمة ايه وبتاع ايه ؟ بقى انتو تروحوا تلعبوا وتضيعوا حاجتكم وبعدين تيجوا تقرفونا وكمان تقول رحمه وكلام فاضي ؟ ياناس ارحمونا انتوا يرحمكوا ربنا !!

ولم ارد عليه واكتفيت بما وصلت اليه من نتيجة . ذلك انه كف عن ضربه ليوجه الى هذا الرد الطويل على احتجاجي ثم ترك الحجرة بعصبية شديدة واحكم رتاجها على البائس الملقى في قلب المياه !

واعتقدت وانا اتبعه ان العربجي لن ينهض بعد ذلك وان اقصى ماسيمكن ان يفعله هو ان يزحف على الارض او يمشي على اربع ! وتمنيت لو كان بوسعي ان اطلق سراحه ! وفكرت فيما يحول بيني وبين ذلك . فالعفش المسروق هو عفشي وانا صاحبه الذي يعلم تماما ان اكثره قد تبدد . ولكني مع هذا لا اريد له ان يتعذب على هذا النحو اللانساني . لا ولا اريد له ان يسجن اخر الامر ويحرم مما تتمتع به اي حشرة تدب على الارض !!

وكنت اعلم انني سأبدو اكثر من غبي واكثر من ابله وان الشاويش سيسخر مني اذا سألته ان يطلق سراحه ومع ذلك فعلت . فضحك طويلا حتى كاد ان يستقلي على قفاه . ثم قال في هدوء يشبه الهدوء الذي يسود بعد العاصفة :

ـ انت عبيط يا افندي ولا مخلول ؟ أسيبه أزاي بس ؟ امال تعليم ايه ومدارس ايه يا اخواتي ؟! روح يا افندي روح . اجرى شوف لك قط غمضه ولا شوف لك عربجي تاني ياخد الكراكيب بتوعك يروحهم لك.

وسكت برهة ثم أردف :

ـ ومتنساش تبقى تاخد رخصة معاك وتمشي وراه خطوة بخطوة

وخرجت ثائرا من القسم دون ان يكون في قلبي اثر للفرحة التي كنت اتوهمها من عثوري على العفش ابحث عن شخص يمكن ان يرشدني الى اقرب موقف لعربات الكارو .

القاهرة — ثروت سرور

وأنا أيضاً أهوى النور !..

***

وحدثوني انها رقيقه
وانها تودع الضيوف حتى الباب
وتغمر الاصحاب بالحنان
« فالليل ياضيوف مظلم طويل
لابد ياضيوف من قنديل
مع السلامه ... »
وتلتقي قلوبهم بكفها الصغيرة
« مسيت بالهناء ياأميره »
ويذهبون في الفؤاد صوره
لغادة ترف في غلالة بيضاء
كانهـا حمامه ...

*

أمـا أنـا
يا طالما ودعت بيتها بلا ابتسامه
ولا سلامـه ..
ولا بصورة الحمامـه
كانني ياليل صقر يرهب الحمام
كانني ثعبان
لذا سأقطع الطريق كالثعبان
مادمت يامصباح لم تكن رفيقي
سأسأل الجدران عن طريقي
يكفيك يافؤادي ذلة الغريب
وملمس الحجاره
حسبك ياعيوني دمعة تنادي
في الليل دون سامع ولا مجيب

*

قولوا لطفلة المحيا انني وديع
وانني ـ والله ـ قد ولدت في الربيع
لاترهبي جهامتي وقلة ابتسامي
وحدة تصيبني في غمرة الكلام
فتحت معطفي هوى بديع
للناعمين بالسنا وبالسلام
الراشدين في الظلام ـ
لكل كف تشعل الشموع

القاهرة — رشدي صادق